مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلِّ اللَّهُمَّ على سيِّد المرسلين محمد وعلى آله الطيبين وأصحابه المُتَّبِعين، **أما بعد**:

ابتدأت قصة هذا الكتاب في العاشر من شهر ربيع الثاني عام ثلاثة وثلاثين وأربعمائة وألف (١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م)، حين نشرتُ عبر قناتي في موقع (يوتيوب) أول حلقة من السلسلة المرئية: (كامل الصورة).

ولم يكن يخطر ببالي حينها أن هذه السلسلة ستمتد إلى تاريخ كتابة هذه الأسطر الموافق لمنتصف شهر صفر من عام تسعة وثلاثين وأربعمائة وألف (١٤٣٩هـ).

وخلال هذه الأعوام الستة انفتحت لي مسارات متعددة عبر بوابة برنامج كامل الصورة، ربما كان أهمها: التواصل المستمر مع شريحة واسعة من الشباب المستهدفين بالبرنامج أصالة، مما كان له أثرٌ كبير في تطوير معرفتي بما يُشغل

عقول الشباب من تساؤلات وتحديات فكرية متجددة متسارعة عبر مضخات شبكات التواصل الهائلة.

ظلّتْ حلقات سلسلة التواصل تتّسع من الطرفين حتى جاء التتويج الكبير متمثلاً في برنامج صناعة المحاور الذي يقوم عليه الآن نخبة من طلاب العلم والمشايخ الفضلاء من طرف، ويستفيد منه الآلاف من طرف آخر، والفضل كله لله تعالى.

مأزقُ اختيار العنوان:

لا يخفى على من مارس التأليف أو إنتاج البرامج أن اختيار عنوان الكتاب أو البرنامج يشكل تحديًا كبيرًا، فإن الجمع بين:

- الجدة،
- والتشويق،
- والدلالة على المضمون،
- مع الاختصار، (وهي متطلبات العنوان الجيد) يضيق مجالات الاختيار ويستنفر طاقات الذهن والفكر، وكثيرًا ما يقوم أصحاب البرامج بعقد اجتماعات استشارية لاختيار العنوان، تُعرَف بجلسات (العصف الذهني).

على أية حال؛ فقد قمت بهذا العصف الذهني ذاتيًّا قبل نشر أول حلقة من البرنامج، لعدم معرفتي ـ في تلك المرحلة ـ

بمن يشاركني نفس الاهتمام بمجال البرنامج، ثم صار من بركة البدء في هذا المجال أن تعرفتُ على المهتمين به، ونشأت بيننا علاقات متينة بفضل الله تعالى، فرُزِقتُ بزملاء وأحبة إنما هم من النعيم المُعجل في هذه الحياة.

انطلقْتُ في اختيار العنوان من منشأ الإشكال الذي كنتُ ألاحظه على المتأثرين بالشبهات المثارة ضد الثوابت الإسلامية، ألا وهو عدم (الإحاطة) علمًا بالقضية المُستَشكلَة؛ بل النظر إليها من زاوية ضيقة إنما تُظهر جزءًا من صورتها وتُخفي باقي أجزائها.

فاخترتُ ـ بعد طول تفكير ـ عنوان «**كامل الصورة**» إشارة إلى أهمية إتمام التصور تجاه المسائل التي تُتَناول بالنقاش والنقد.

من الصورة إلى الكتاب:

بعد إنجاز ست عشرة حلقة مصورة من البرنامج جاءت فكرة تحريرها مكتوبة مرتبة على صياغة تناسب إخراجها في كتاب، فتم ذلك ـ بفضل الله تعالى ـ وصدر الكتاب في معرض الكتاب الدولي بالرياض عام خمسة وثلاثين وأربعمائة وألف (١٤٣٥هـ)، ثم تبعه الجزء الثاني في العام التالي (١٤٣٦هـ) مستوعبًا ثمان حلقات جديدة.

وأحمد الله تعالى على ما رأيت من الاهتمام بجزئي

الكتاب بين الشباب في أندية القراءة وغيرها، كما سرني قيام بعض الأساتذة الجامعيين الأفاضل بتقرير بعض حلقات البرنامج على الطلاب أو عرضها والإرشاد إليها.

وبعد نفاد الكتاب من السوق أراد الزملاء في مركز تكوين إعادة طباعة الكتاب واقترحوا عليّ جمع الجزئين في كتاب واحد، فاستحسنتُ الفكرة، وبدأت العمل على إعادة ترتيب الكتاب وتحريره، وقد كنتُ أظن أني أنتهي من ذلك في وقت يسير، وأخبرتُ أصحاب الدور الذين تكرر سؤالهم عن الكتاب بذلك، ولكني فوجئتُ بأن التحرير يتطلب وقتًا طويلًا خاصة وأني أضفت إلى الكتاب أشياء كثيرة جدًّا، ومواضيع متعددة، وقد حال دون إتمامي إياها ـ في وقت يسير ـ: كثرةُ الصوارف.

وها هو الكتاب بعد ضم جزئيه وإعادة ترتيبه وتحريره والإضافة إليه إضافات كثيرة زائدة على أصله، وبعد حذف مواضع كثيرة منه، أقدمه للقراء الكرام في نسخته الأولى التي ربما تتبعها نُسَخ أخرى.

وأسأل الله الكريم العون والتسديد والبركة والتوفيق، وصلّ اللَّهُمَّ على نبيّنا محمد.

أحمد بن يوسف السيد

Alsaiyd98@gmail.com

الباب الأول

دلائل أصول الإسلام

أولًا: إثبات وجود الله.

ثانيًا: الغاية من الوجود.

ثالثًا: إثبات النبوة وصحة القرآن.

رابعًا: محاسن الإسلام.

أولًا: إثبات وجود الله سبحانه

حين يسأل متحيّرٌ: «ما الدليل على وجود الله؟»، فمن المهم ـ قبل الإجابة عن سؤاله ـ التأكد من طبيعة الدليل الذي يريده لإثبات وجود الله ﷻ؛ إذْ إنَّ كثيرًا من المتحيّرين في وجود الخالق ـ فضلًا عن المنكرين الملحدين ـ يتركون الأدلة الواضحة السهلة القريبة، ويتطلبون الطرق الوعرة الطويلة التي قد لا توصل إلى نتيجة أصلًا، وقد يشترطون شروطًا ـ في الدليل الموصل إلى معرفة الله ـ راجعةً إلى أذواقهم واستحساناتهم الشخصية، وليس إلى معايير منهجية، وموازين موضوعية.

فهؤلاء مهما تذكر لهم من الأدلة والبراهين فإنها لا تنفعهم طالما أنها لا توافق الاستحسانات الشخصية التي وضعوها، وذلك كقول بني إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، فهم هنا حصروا دليل

الإيمان في الرؤية الحسية، وهو تعنّت ورثه عنهم المتعنتون من غير المؤمنين بالله ورسوله في سائر الأزمان إلى زماننا هذا.

بينما لو تأملتَ في الحجج والبراهين الموصلة إلى عموم الحقائق القطعية في مختلف المجالات؛ لوجدت أنها لا تنحصر في الرؤية الحسية مطلقًا، فعلى سبيل المثال: إيماننا القطعي بوجود بعض الشخصيات التاريخية كأفلاطون وأرسطو وصلاح الدين الأيوبي ليس سبيله الرؤية البصرية ولا الحس المباشر؛ بل عمدته الخبرُ ـ وهو جزء من مصادر المعرفة ـ.

إن إثبات وجود الله ﷻ أمر فطري عقلي قريبٌ لا يجهد العقل في الوصول إليه؛ إذ إنّه قائم على مبدأ يجده الإنسان مركوزًا في عقله بحيث لا يمكنه التخلي عنه البتة، وهو مبدأ: (**الاستدلال بالأثر على المؤثِّر**)؛ بل إن عامة الملحدين الذين يتنكرون لوجود الخالق سبحانه يُطبقون هذا المبدأ في سائر أمور حياتهم وإن أنكروه في باب الألوهية.

إن البحث فيما وراء الآثار والأفعال والأحداث عن المؤثّرين والفاعلين والمُحْدِثين لا يُمكن أن يتخلى عنه البشر ـ مُطلقًا ـ إلا في حالة فقدانهم عقولهم، إذ لا يمكن للبشر أن يتصوروا حدوث الأشياء بعد عدمها دون وجود أسباب لذلك تناسب طبيعة تلك الحوادث.

وإذا كان العقل البشري لا يقبل تصور حدوث (صورة إنسان متقنة) على ورقة بيضاء بدون وجود سبب يمتلك الخبرة التي أوجد بها الصورة على الورقة، فإن عدم قبوله لحدوث الإنسان ـ نفسه ـ دون وجود فاعل قادر عليم = أولى وأحرى.

وقُل مثل ذلك في سائر الأشياء الحادثة بعد العدم.

وكلما كان الأمر الحادث الناشئُ أكثر إتقانًا وتعقيدًا اشتدت الضرورة في النفس للبحث عمّا وراء ذلك الأمر المُحدَث المتقَن من السبب الذي يناسب هذا الإتقان والتعقيد، فإن العقل لا يقنَع ـ عند النظر في الأمور الحادثة ـ بمجرد وجود سبب وراءها؛ بل لا بد أن يكون السبب مناسبًا للصفة التي نشأ عليها هذا الأمر الحادث، فإذا كانت عقولنا لا تقبل تصور قيام طفل عمره ثمانية أشهر ـ مثلًا ـ بصناعة جهاز كمبيوتر وذلك بسبب التنظيم البالغ التعقيد في جهاز الكمبيوتر والذي يتطلب معرفة وخبرة وعقلًا ناضجًا؛ فإننا ـ كذلك ـ لا يمكن أن نقبل بأن يكون من أنشأ هذا الكون البالغ في التعقيد والخاضع لأدق القوانين جاهلًا أو عاجزًا، فضلًا عن أن يكون الكون ناشئًا بلا سبب ولا فاعل أصلًا.

ومع أن هذه القضية في غاية الوضوح والسلاسة فإن كثيرًا من الناس يُعرضون عن هذا الوضوح والقُرب، فيُعقّدون

ما حقه التبسيط، ويُعسّرون ما حقه التيسير، فيتطلّبون أدلة معقدة على وجود الله سبحانه لا يتوقف معرفة الحق عليها.

وقد تأملت عامّة ما يُثار من إشكالاتٍ واعتراضات في هذا الباب فوجدتها ناشئة من أحد أربعة أمور:

الأمر الأول: الانحراف في باب مصادر المعرفة ووسائل اكتسابها:

والمقصود بالانحراف في باب مصادر المعرفة: هو حصر طرق اكتساب المعرفة في مصدر واحد مع إهمال بقية المصادر.

وأهم المصادر التي يمكننا أن نكوّن المعرفة عن طريقها، هي: العقل، والحسّ ـ كالإبصار واللمس ـ والخبر الصحيح الصادق، كما أننا نكتسب من الفطرة معارف أولية تعتبر أساسًا لكثير من المعارف المكتسبة لاحقًا.

مثال على الانحراف في مصادر المعرفة:

إذا قلت للملحد: إننا نؤمن بوجود الله سبحانه اعتمادًا على دلائل العقل القطعية، وعلى الفطرة.

فيقول لك: ولكنّي لا أثق إلا بالأدلة الحسيّة التجريبية المبنيّة على الملاحظة في المختبر، وبما أن أدلة وجود الله ليست كذلك؛ فإنه لا يؤمن به.

فهذا الإلحاد سببه الانحراف في باب مصادر المعرفة،

مع تكبُّرٍ ـ لا يَسلَمُ منه الكثير ـ عن الخضوع للحق الذي من لازِمِه مخالفة للهوى.

الأمر الثاني: عدم تصور حقيقة أدلة المؤمنين والتسويةُ بينَها وبين شبهات الملحدين:

كثيرًا ما يستهتر الملحدون بأدلة المؤمنين على وجود الله، فيصورونها على غير حقيقتها، حتى يظن الجاهل أن أدلة المؤمنين إنما هي مغالطات وتعصب وإيمان جامد، وهذا غير صحيح.

مثال ذلك: التسوية بين المبدأ العقلي الفطري الضروري: **(كل حادث لا بدَّ له من محدث)** وبين فرضية خيالية سخيفة قررها «برتراند رسل» مُصورًا بها أن احتمال وجود الله كاحتمال وجود إبريق في الفضاء لا تستطيع أن تثبت وجوده ولا أن تنفيه، وهذه مغالطة ناشئة عن التسوية بين المختلفات؛ فالإبريق لا أثر له، بينما كل شيء نراه في الكون هو من آثار وجود الله وقيّوميّته.

الأمر الثالث: ادعاء نتائج غير صحيحة لفقدانها شرط التلازم:

إن من شروط صحة الاستدلال أن تكون النتيجة مستنتجَة من الدليل بطريق اللزوم، وأما الاستدلال بالأدلة الصحيحة على نتائج لا تلزم منها، فهذا خلل يمارسه كثير من الملحدين ومثيري الشبهات ضد السُّنَّة والثوابت.

مثال ذلك: الاستدلال بالنظريات والقوانين العلمية التي تفسر حركة الكون أو نشوء المخلوقات على نفي وجود الخالق؛ وهذا استدلال يفتقد التلازم، فإن وجود القانون لا يلزم منه عدم وجود مدبر له.

الأمر الرابع: الكبر والهوى:

إن العقل البشري حال خلوّه من المؤثرات لا يُطيق الاطمئنان إلى افتراض نشوء هذا الكون بكل ما فيه نتيجة العشواء والصدفة، وإن الاعتراف بوجود خالق عظيم عليم قدير وراء كل هذا الإتقان والإحكام ـ الذي له ملايين الشواهد في الإنسان والحيوان والكون ـ أمرٌ تدعو إليه الفطرة ويستوجبه نظر العقل وترنو إليه النفس وتطمئن، وإنما يحصل جحود ذلك بسبب كثرة الشبهات المعارضة للنظر العقلي المستقيم، وللفطرة السوية الصحيحة، مع مزيج من الهوى والكبر، الذي يدفع بالإنسان إلى الاستنكاف عن الخضوع والذل لله سبحانه، وعن مخالفة هوى النفوس ورغباتها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾ [غافر: ٥٦].

ثانيًا: الغاية من الوجود

إذا كان كُلّ شيء في هذا الكون ـ ابتداءً من أصغر ذرة في جسم الإنسان مرورًا بالمجرات وانتهاء بما لا يزال يكتشف إلى اليوم في هذا الكون الفسيح ـ يدلُّ على أنه ليس نتاج الصدفة، فإنه يدل ـ كذلك ـ على وجود الغاية وانتفاء العبثية وراء إيجاده.

وإثبات الغاية ونفي العبثية هو أمر زائد على مجرد نفي الصدفة والعشوائية، فإن نفي الصدفة؛ يعني: أنَّ هناك سببًا مناسبًا وراء الشيء الذي حدث ـ فقط ـ، وأما نفي العبثية فيعني أن هذا السبب كان له حكمة وغاية وقصد في إيجاد ما أوجد وليس لمجرد العبث.

وإذا نظرت إلى هذا الكون العظيم، فستجد أن:

ـ إتقانه المذهل،

ـ وإحكامَه المُعجِز،

ـ وجمالَه المدهش،

ـ وتناسقَه العجيب،

ـ وسيره على قوانين منتظمة وثوابتَ كونية ـ أجبرت العلماء على اتساع أحداقهم اندهاشًا من هذا التناهي في الدقة ـ،

ـ وانضباطَه في أدق الأشياء وأصغرها ـ كالخلية وما فيها من عمل مُعجز، وما تحويه من المعلومات الوراثية الدقيقة،

ـ وغير ذلك مما لا ينتهي من شواهد الدقة في الكون والإنسان.

كل ذلك ينفي عند العاقل المتأمل فكرة العبثية وانعدام الغاية في إيجاده، فإن الأمر كما قال الله عز وجل: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٧]، فلماذا كل هذا الإتقان المخيف إذا كانت القضية مجرد لعب ولهو وعبث؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

فوجود الغاية والحكمة العظيمة ظاهر من خلال التأمل في المخلوقات واستعمال مبدأ **(دلالة الأثر على المؤثر)** ولكنّ السؤال: ما هي هذه الغاية العظيمة؟ وكيف نعرفها؟

إذا نحن أثبتنا وجود الخالق العظيم الحكيم، ثم أثبتنا بالدلائل والبراهين أنه أرسل رسلًا وأنزل كتبًا ليبيّن للناس ما يريد منهم ـ وسيأتي ذكر هذه البراهين إن شاء الله ـ؛ فإن البحث عن الجواب من خلال رسالة الله الخالق ـ نفسِه ـ والاهتداء بالعلم الذي أنزله على رسله هو عينُ العقل ومقتضى الحكمة الصحيحة.

فإن الإنسان إذا وقف ـ أثناء رحلة بحثه عن هذا السؤال الكبير ـ على مصدرٍ يهديه ويرشده، وثبت لديه أن هذا المصدر سبب كل معرفة، وأصل كل علم، وأن هذا المصدر هو سبب الوجود كله؛ فإن إعراضه عنه، وبحثه عن غيره لا يدل إلا على جهل أو استكبار.

إن الله ﷻ كما جعل للناس علامات وقوانين يهتدون بها إلى طُرق البر والبحر والجو، ويتفاعلون معها وينطلقون على ضوئها إلى آفاق مادية عظيمة، فإنه جعل للناس علامات يهتدون بها إلى الحقائق الغائية المعرفية الكبرى التي أوجد الكون لأجلها.

فإلى أين يذهب الإنسان في الأودية الموحشة بعيدًا عن أنوار الوحي الذي أنزله الله لينير عقل الإنسان ويُسكن روحه؟

لقد جرَب الإنسان ركوب سفينة آرائه المحضة، وخوضَ بحار البحث عن حقائق الكون الكبرى دون استعانة

بأي أدلة خارجية، فلم يصل إلى ما يشفي صدره من الجواب.

نعم؛ قد يتوصل بنظره العقلي الصحيح ـ إن سَلِمَ من المعارض وكان متجردًا (وما أقل المتجردين) ـ إلى إثبات وجود خالقٍ لهذا الكون، وإلى بعض ما ينبغي أن يكون عليه من صفات، وإلى ضرورة انعدام العبثية وراء هذا الخلق، ولكن: هل هذا كلٌّ شيء؟

إننا إذا عرفنا ضرورة انعدام العبثية وتأكدنا من وجود غاية عظيمة؛ فكيف السبيل إلى تحديد هذه الغاية؟

إن الإنسان يريد الوصول إلى معرفة تفصيلية بخالقه وخالقِ كل شيء، يريد أن يتعرّف عليه، ويتواصل معه، إنه يشعر في نفسه بالتعظيم تجاهه، لكن يريد أن يعرف كيف يعظمه على الوجه الذي يحبه؟ يريد أن يمجّده، ويثني عليه، إنه يريد من هذا الخالق العظيم جبر كسره، وتقوية ضعفه، وإنارة دربه.

إن الإنسان يريد أن يعرف مبدأه ومصيره، يريد أن يعرف ما يريده الخالق منه، فهو يحتاج إلى بيانٍ شافٍ ممن يعلم حقائق كل شيء ويحيط بها سبحانه، يُسهّل عليه معرفة ما وراء المحسوس، ويكشف له جواب ما يقلق عقله من تساؤلات.

ولأنّ الخالق سبحانه كامل الصفات، فقد اقتضت حكمته ورحمته أن يبيّن للإنسان هذه الحقائق، وأن يكون بيانه لها عن طريق صفوةٍ من البشر بَلَغوا الغاية في الصدق والأمانة والتقى، يختارهم الله بعلمه: فـ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ويقيم الدلائل عل صدق رسالتهم، وصحة نبوتهم.

إنّ المتأمل في القرآن الكريم ـ الذي هو آخر رسالة ينزلها الله على عباده ـ سيجد أن حظًّا كبيرًا من آياته تعرفنا بالله سبحانه؛ بل إن أعظم آية في هذا الكتاب العظيم إنما هي تعريف بالله ـ آية الكرسي ـ، وأعظم سورة في القرآن إنما هي حمدٌ لله وثناء عليه وتوكلٌ عليه واستعانة به ـ سورة الفاتحة ـ، وكذلك السورة التي ثبت عن النبي ﷺ أنها تعدل ثلث القرآن ـ الإخلاص ـ إنما هي تعريف بالله تعالى وتمجيدٌ له. قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: ١٢].

فهذه الرسالة الإلٰهية الخاتمة تُعرِّف البشرية بعظمة وجلال وكمال خالقهم جل وعلا، كما أنها تُعرّفهم بأن إراداتهم الحرة محلٌّ لابتلاء الله لهم ليعبدوه طوعًا واختيارًا، فيثيبَ مطيعهم بأعظم الثواب، ويعاقب عاصيهم بأشد العقاب، فقال سبحانه وتعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: ١، ٢]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾ [هود: ٧]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس: ٤].

ويبيّن الله تعالى في آيات كثيرة من كتابه أنه غنيّ عن عباده، وأنه غير محتاج إليهم، وأن من اهتدى وأطاع فقد فاز وحصَّل الربح لنفسه، ومن ضل وابتعد فقد خسر وكان الوبال عليه.

ويذكّر عباده بأن وراء إيجاده لهم أمر عظيم من معرفة الحق والباطل والخير والشر، وما يتبع ذلك من انقسام الناس بينهما، ثم الصراع بين الفريقين الذي يستخرج أحسن ما في الوجود من كمالٍ مخلوق، وأسوأ ما فيه من الشر، **وفي ذلك أعظم آية على كمال الله المتفرد الذي يخضع له أحسن ما في الوجود اختيارًا.**

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا

تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٦ ـ ١٨]، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وقال ﷻ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦]، قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: السدى: الذي لا يؤمَر ولا يُنهى! وقال في غاية البيان: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

إن الغاية من الوجود إذًا، هي:

ـ معرفة الله العظيم.

ـ التقرب إليه اختيارًا.

ـ إثابة المحسنين بأعظم النعيم.

ـ إيجاد الحق والباطل امتحانًا واختبارًا لينتج عن ذلك اصطفاء أفضل المخلوقات وإبعاد أرذلهم ومعاقبتهم.

ـ ظهور آثار صفات الله سبحانه من العلم والخلق والحكمة والقدرة والعزة والرحمة... إلخ من غير احتياج لهم.

ـ هذا شيء مما ظهر لنا من الحكمة في ذلك، ولا

يحيط أحد بحكمة الله علمًا، واللهُ سبحانه لا يُسأل عما يفعل، وهو الأعلم بتمام حكمته، ونحن نجتهد في فهم ما بيَّنه لنا منها، وهو غني عنا وعن فهمنا وعبادتنا، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.